الحلقة الرابعة

أندريه مالرو

دعونا نغادر أرض الوطن.. وحدود الوطن العربي كله.. إلى قارة أوروبا: قارة الحضارات والثقافة والفكر والآداب والفلسفة والموسيقى والفنون.. القارة التي استعمرت العالم قديماً وبهرته وماتزال تبهره حديثاً، بتقدمها الصناعي.. وبجمالها المعماري.. وبحيوية فكرها وآدابها وفنونها وموسيقاها، ونماذجها العلمية والأدبية والفنية التي لم تنقطع عن تصديرها إلى العالم كله.. منذ الثورة الصناعية في القرن السادس عشر وإلى اليوم، لأقف، وتقفون معي عند واحد من أدبائها في القرن العشرين.. عند «أندريه مارلو»: المثقف.. والسياسي والمحارب والأديب والروائي والفنان، الذي ولد في مطلع القرن العشرين، وشارك في الحرب الأهلية الصينية ما بين عامي ١٩٢٥م إلى عام ١٩٢٧م.. فاستهوته عاصمة الصين: «بكين» وحضارتها وفلسفتها وثقافتها.. فمكث بها سنيناً طويلة كتب خلالها أولى رواياته الثلاث، لكن أهمها.. كانت روايته «مصير البشر» الذي أخذ عنها الجائزة الفرنسية المعروفة «جونكور».. فكان بذلك كسلفه السياسي والأديب «كليمنصو» الذي كتب في الصين روايته الرائعة «قناع السعادة»..

وكان عجيباً أن ينتقل هذا الأديب الفنان والسياسي المحارب.. إلى «أسبانيا» ليكتب عن المقاومة الأسبانية في أوائل الثلاثينات عبر روايتيه الأشهر: «الاحتقار» في ١٩٣٥م، و«الأمل» في عام ١٩٣٨م، ليعود بعد ذلك إلى فرنسا.. وإلى مقاومة الاحتلال النازي لـ «فرنسا» وباريس خلف الزعيم الفرنسي شارل ديجول، الذي أعجب به.. وبوقفته وسط انهيار فرنسا أمام جحافل القوات الألمانية الهتلرية. إذ كان «ديجول» ساعتها.. ليس بأكثر من موظف فرنسي صغير برتبة وكيل وزارة في وزارة الحربية، ولكنه خطف عقله وقلبه.. عندما هرب من فرنسا إلى إنجلترا وأعلن المقاومة للنازية: وهو يقول: أنا فرنسا.. الحرة.

وعندما انتهت الحرب بانتصار «الحلفاء»، ومعهم «المقاومة» التي قادها ديجول وإلى جانبه مارلو.. وجرت الانتخابات التي لم تعط ديجول وصديقه ما تمنياه لينصرف كل منهم إلى مسقط رأسه، ثم ليعودا من جديد مع أزمة الثورة الجزائرية والانقسام الفرنسي الشعبي الذي حدث وقتها حولها.. بين الجنرالات الفرنسيين الذين يعتبرون الجزائر أرضاً فرنسية، وبين «ديجول» الذي كان يقول وقتها كما ذكر مارلو: «كان على فرنسا أن ترتدع عن التعلق بمستعمرة، وترك الخيار لها بأن تنضوي تحت الهيمنة الفرنسية، أو أن تتسلم استقلالها».. ليقيم الجمهورية الرابعة برئاسته.. وليكون «مالرو» وزير ثقافته الدائم فيها..

* * *

لقد كتب مارلو الكثير من الروايات.. والمئات من المقالات.. والعشرات من القصص ولكن عندما مات ديجول أثناء اعتزاله الأخير في نوفمبر عام ١٩٧٠م بقريته الثلجية «كولمبي».. كتب عنه ربما أجمل كتبه ورواياته وبإطلاق. إنه كتاب: السنديانات التي يقطعون.. أو «ديجول وأنا»..

لقد أحبه في ذلك الكتاب.. وكتب قصة حياته.. وقدم فكره وعشرات العشرات من مواقفه وذكرياته وسخرياته وأحزانه.. فيما لا يزيد عن مائة وستين صفحة من الحجم الصغير، وعلى طريقة الفرنسيين خصوصاً والأوروبيين عموماً الذين تكتنز سطورهم القليلة.. معان كثيرة تبهر وتدير الرؤوس..!

في البدء قال عنه: «وجه بلا عمر. وصمت أجمل من الكلام. وكلام أمتع من الصمت».

وقال عنه: «إنه بطل ينتمي إلى الميدان الأسطوري، ولذلك فإن فعله لا يتأتى من النتائج التي يبلغها.. بل من الأحلام التي يجسدها»..!!

و«أن في مجده عنصر غير عقلاني، فهو قائد التحرير، والمنتصر المنفرد، والمتمرد، وصاحب قيامة الطاقة الوطنية، ومن ثم قيامة الأمل حتى عام ١٩٥٨م، وهو الوحيد الكان جديراً بمواجهة الكارثة (ويعني بها الاحتلال الألماني) لا لأنه قادر على تحقيق الوحدة الوطنية على طريقة بوانكاريه. لكن لأنه كان يحمل فرنسا فيه»..!!

وأخيراً «إن أصدقاءه وخصومه معاً، يجدون فيه ساحراً كما جان دارك في محكمة روان..! التي حكمت عليها المحكمة بالموت حرقاً، وهي الوطنية والقديسة الحالمة بفرنسا ومجدها»..!!

ولكن ما أجمله عندما تحدث عن «المساواة» و«التمايز» عند الفرنسيين وهو يتوجه بخطابه إلى ديجول: «الفرنسيون كما تعرف يصعب عليهم التصرف بين رغبتهم في التمايزات وذوقهم في المساواة»..!؟ وما أروعه وهو يسترجع مع ديجول قولته: «الزمن وحده يصنع التاريخ. وإذا تاريخ فرنسا يمر في استقلال الجزائر، فليمر! في اتحادنا مع ألمانيا، فليمر، لم يكن مفرحاً الندم على استقلال الجزائر»، وما أمتعه وهو يستعيد موقف ديجول «عندما رأى الفنانة بريجيت باردو في إحدى حفلات الإليزيه تصل بثوب فاضح على الطريقة الفرنسية.. ليبتسم لها قائلاً: ما أقل حظي يا سيدتي. أنت بالزي العسكري وأنا بالزي المدني»..!

وكان أكثر روعة وهو يتحدث عن حب «ديجول» الملتبس لنابليون، الذي أعجب بقولته عندما وصل إلى منفاه في جزيرة سانت هيلين: «هذا محزن.. كما العظمة»..! لكن.. مع ذلك، قال عنه: «ترك فرنسا أصغرُ مما وجدها»..!! ليضيف برؤياه التاريخية الرائعة «لكن الأمة لا تتجدد هكذا، فقد كان يجب من صالح فرنسا.. أن يوجد، كما فرساي.. كان يجب بناؤه. لا يجب أن نفخر بالعظمة»..!!

إلا أن عظمة «مالرو» و«ديجول» تجلتا معاً.. عندما طلب مالرو من ديجول العودة عن استقالته بعد أحداث ٦٨م والاستفتاء الذي

جرى بعدها.. فقال له: «لن يمكنني للمرة الثالثة الإمساك بفرنسا من شعرها.. في اللحظات الأخيرة»..؟!

ما أمتع وأروع ذلك الذي كتبه أندريه مارلو.. وجعل منه نجماً ساطعاً من نجوم القرن العشرين يلحق بمن سبقوه وجايلوه من أدباء وأديبات فرنسا.. الذين سيكون لي معهم أكثر من لقاء عودة في هذه السلسلة من المقالات.